الإنسان المعاق... نظرة مختلفة لحياة مختلفة

ورقة مقدمة لمؤتمر دور هيئات ومنظمات المجتمع المدني في الوقاية من الاعاقة في الخليج

تحت محور "عوامل تغيير الاتجاهات نحو الاعاقة للحد من تأثيراتها أو الوقاية منها"

مقدّمة:

إنّ موضوع الاعاقة بأنواعها يجتذب اهتماماً أكبر من الحكومات والمسؤولين والمختصين ومؤسسات المجتمع المدني والمجتمع بصورة عامة في السنوات الأخيرة، فالكثير من الخدمات والمراكز خصصت لهذه الفئة سواء كان المعاق بالغ أم طفل، وهي تحاول في أغلبها تقديم خدمات مختلفة للمعاق ومساعدته لكي يستطيع أن يتطور علمياً وأكاديمياً وأن يتعلم مهارات جديدة تساعده في أن تكون حياته أكثر راحة وتساهم في انخراطه في المجتمع بحيث يشعر بأنّه جزء منه.

وقلمّا يتم التركيز على نظرة المعاق الإنسانية لنفسه وقيمته كإنسان، فكثيراً ما يتم النظر والتعامل مع المعاق والأمور المتعلقة به كمشكلة بحاجة إلى صبر وحل، فالنظرة الأولى للمعاق غالباً لا تخلو من الشفقة عليه وعلى أهله وأولئك المحيطين به ومن ثمّ التفكير بسبل تقليل المشكلات وتسهيل الحياة له ولكل من هم حوله. وهذه النظرة للمعاق بالرغم من أنّها تأخذ جانب الرحمة بالاعتبار، إلا أنّها تجعل الاعاقة هوية المعاق الأولى، وانسانيته وطاقاته الإنسانية وتميّزه الإنساني يأتي بشكل ثانوي. وقد لا تكون مخاطر هذه النظرة للمعاق ظاهرة وجليّة، إلا أنّها تتسبب في تحديات عميقة للمعاق وذويه والمجتمع. فهي تقلّص تركيزهم على الجوانب المميزة في انسانيتهم وتضخّم تركيزهم على اعاقتهم، ومن جانب آخر، فالأسرة التي يولد بها أو يعيش فيها معاق تركز على المشكلات الناتجة من الاعاقة ويصعب عليها التكيز على جوانب التطوّر الإنساني الذي يتيح لها وجود المعاق في حياتها وكيفية المساهمة في ايجاد تغيير ايجابي والمساهمة في الأمور الهامّة والحساسة في المجتمع بحيث تكون الإعاقة عامل محفّز وتجربة اضافية للإنسان المعاق وليس المعاق الإنسان.

تحاول هذه الورقة إلقاء الضوء على أهمية التركيز على أن تكون انسانية المعاق هي المحور الأول والأساسي للنظرة له، والتي بناء عليه تُبنى الخطوات التالية للتعامل مع المعاق وتقديم الخدمات له ، وتبيّن الورقة أيضاً التأثير الذي سيكون لبناء هذه الثقافة على المعاق وذويه والمجتمع والحدّ من تأثيرات الاعاقة السلبية على جميع الأصعدة ودور المؤسسات المختلفة في ارساء هذه الثقافة.

أُولى اللحظات:

تعتبر ولادة طفل في العائلة من الأحداث التي تمتزج فيها مشاعر مختلفة عادة ما تتوّجها الفرحة والأمل، وقد تكون صدمة الآباء شديدة عندما يُولد لهم طفلاً ويعلمون أنّ به إعاقه. فحين يفكّر الآباء في أبنائهم ويتخيّلون مستقبلهم، فهم يرسمون لهم صور حالمة في أذهانهم، ومع وجود الإعاقة في الطفل، قد يرى الآباء أنّ قصر احلامهم قد اهتز، وأنّ حياة إبنهم صارت في وضع صعب، وقد يشعروا بالحزن والأسى وربّما الغضب أوالإحباط، فحتى الزيارة في المستشفى قد يعتليها الأسى من الأهل والمقرّبين والأصدقاء. والوضع لا يختلف كثيراً إذا ما عرف الآباء بوجود الإعاقة لاحقاً وليس حين ولادة الطفل مباشرة، فالصدمة قد تكون شديدة حينها أيضاً.

فالبداية بها تحدي وصعوبة، وقد تختلف نظرة الأهل لوجود الإعاقة بحسب شخصيّاتهم والمعتقدات التي يحملونها والبيئة التي يعيشونها، ومهما تكن، فهي لها دوراً رئيسيّاً وتأثيراً هامّاً في نظرة الطفل لنفسه ولمن حوله ولدوره في الحياة، والتي قد يحملها معه كما هي في جميع سنوات عمره التالية، ما لم يعمل هو على تغييرها بوعي. وفيما يلي بعض المشاعر الشائعة التي قد يعيشها الآباء مع وجود طفل معاق، والتي لكلّ منها تأثير مختلف في التعامل مع الطفل والتواصل معه:

- الشعور بالشفقة على النفس.
- الشعور بالخوف على الطفل والتوجّس من مستقبله والشفقة عليه.
- الشعور بالإحراج في الأسرة أو المجتمع.
- الشعور بأنّهم يدفعون ثمن عقاب الله لشيء ما.

- الشعور بالذنب.
- الشعور بأنّ هذا امتحان إلهي عليهم الصبر عليه.

تبني اللبنة الأولى لهوية الأبناء من نظرة والديهم إليهم، ولا يختلف في ذلك الطفل المعاق عن غيره. ومن الآباء من يكونوا مشفقين على الطفل المعاق، ويفرطوا في مراعاته وتلبية طلباته لتعويضه عن شعوره بالعجز والنقص، مما يعزّز هذا الشعور لديه بشكل أكبر، فهو يفهم أنّ هذه المعاملة ما هي إلا نتيجة إعاقته، ومع أنّ ذلك نابع من محبّة أبويه إليه، إلّا أنّ تأثيرها السلبي ينعكس على الطفل بشكل كبير. فمن الصعب على هذا الطفل أن يرى مجالات لتطوّره وأن تكون لديه طموحات مستقبلية تتخطّى إعاقته.

وبعض الآباء يتعاملون بشكل مختلف مع أنّهم ينظرون إلى إعاقة طفلهم بشكل أساسي أيضاً، فمنهم من يرفض الخروج مع الطفل المعاق إلى الخارج واصطحابه لزيارات عائلية او اجتماعية لأسباب مختلفة، كالشعور بالخجل والإحراج احياناً، والتوجّس من الصعوبات التي قد تواجههم لحاجة الطفل لعناية ومراقبة خاصّة، والخوف من نظرات الشفقة او النظرات الطويلة للآخرين. وهذا الطفل يعيش مفصولاً عن المجتمع، وقد يعتقد بأنّ المجتمع عاجز عن احتضانه كما هو، ويشترط لقبوله وضع معيّن لا يستطيع هو تلبيته، فقد يكون جلّ طلب هذا الطفل هو قبوله في المجتمع والذي هو في الأصل حقّ مسلّم له. فيقلل هذا الوضع من الاحتمالات التي يفكّر الطفل فيها بأن يكون له دوراً له في المجتمع حين يكبر، فقد يتقوقع على نفسه، وقد تنتابه مشاعر لا تساعده ولا تساهم في أي تطوير لشخصه أو لمن حوله.

ومن الآباء من لا يولي الإهتمام الكافي للطفل المعاق، فقد لا يؤمن بأنّ له فرصاً لمستقبل جيّد، فيعطيه من الاهتمام ما يتناسب مع احتياجاته الحياتيّة اليوميّة فقط، خاصّة إذا كان الآباء الذين يعتقدون بذلك يعيشون في أسر لديها إمكانيّات قليلة دون دعم، ولديها أبناء آخرون يحتاجون للرعاية، فقد يتم اعطاء الأولويّة لهؤلاء الأبناء وتقسيم المصادر المتاحة بشكل غير عادل بحيث يكون الطفل المعاق في الجانب الأضعف.

وفي جميع الحالات السابقة، فالسمة الأكثر تأثيرا هي محاولة إعاشة المعاق والتعامل معه لتمضية أيّامه بصورة أفضل. وفي سبيل ذلك، كثيرا ما يحاول الآباء إعطاء أبناؤهم المهارات التي تساعدهم في تحمل بعض المسؤوليّات، والتعامل مع إعاقتهم بالحدّ الأدنى من الصعوبات، والحرص على تسليتهم وتمضية أوقاتهم بشكل يبعدهم عن الملل والضجر. ومع أهمّية ذلك، إلّا أنّه من المهم أيضاً أن يتعلم الأطفال مهارات

الحياة وتحمّل المسؤولية وأن يتم تدريبهم على أن يكونوا ليس فقط اقلّ اعتماداً على الآخرين، عمليّاً وعاطفيّاً، ما أمكن، بل أن يكون لهم دوراً في مساعدة الآخرين أيضاً، ويؤمنوا بأنّهم قادرين على العطاء وإيجاد الفرق. وهذه المهارات ممكنة وفاعلة حتى للآباء الأقل تعليماً وثقافة، فالعامل الأوّل لذلك هو أن يكون هاجس التمكين وبناء شخصيّة الطفل الإنسانيّة هو المهيمن الأوّل، وهذا ما على الآباء أن يقوموا بتسليط الضوء عليه، وأن يمنحوا الطفل المعاق المحبّة لا الشفقة، وأن يستشفّوا له مستقبلاً مشرقاً، وأن يركزّوا على جوانب التميّز في شخصيته ومهاراته، وأن يستثيروا فيه حبّ العمل والوصول إلى ما يصبو إليه، وأن يعيشوا هم الأمل بقدرته على الحياة بشكل يرتضيه لنفسه، وأن يؤمنوا به ويحفّزوا الطفل لذلك، ويستثيروا فيه حبّ العمل والاجتهاد للوصول لذلك وأن يساندوه بالإمكانيّات المتاحة لديهم ماديّاً ومعنويّاَ.

المشكلة التي تحتاج إلى حل:

كثيراً ما يتم النظر للمعاق في جميع مراحل حياته بنظرة المشكلة التي تحتاج إلى حل، وقد يتم التفكير في هذه الحلول من خلال بوابّة الشفقة أو أداء الواجب أو التورّط، وكلّ منها لها جوانب سلبيّة لا تساهم في الإرتقاء بشخصيّة المعاق. وقد تكون مراحل الطفولة هي أكثر المراحل التي يتم فيها التعامل مع المعاق ووضعه كمشكلة أو سلسلة من المشكلات المتعدّدة التي تحتاج إلى حل، كالعناية الخاصّة التي يستلزمها، والتعليم المختلف الذي يحتاجه، والتدريب المتخصّص الذي يساعده في الحياة اليوميّة والاندماج، والتعامل مع الجانب النفسي له ولذويه. وتتغّير هيئة هذه المشكلات في ظاهرها بحسب عمر الطفل، ويبقى مضمونها متشابهاً مع إضافة بعض الجوانب الأخرى كتحدّيات فترة المراهقة وما تصاحبها من تغييرات طبيعيّة مثلاً.

وحينما يكبر المعاق، تختلف مجالات التحدّيات كالزواج والعمل مثلاً. ففي الغالب لا تفضّل الشركات والمؤسّسات تشغيل المعاقين حتى في تلك الأعمال التي لا تؤثّر إعاقتهم سلباً على نوعيّة العمل الذي يقومون به، وترضخ أحياناً لتشغيلهم على مضض تحت ضغط الجهات الحكوميّة ذات العلاقة كوزارات العمل مثلاً. فقليلاً ما يتم النظر إلى المعاق في العمل على أنّه مطلوب لمهاراته بغض النظر عن اعاقته، ويُشاد بعمله مقارنة بآخر ليس لديه إعاقة.

إنّ هذه النظرة تولّد تحدّياً كبيراً للمعاق، حيث إنّها تعطيه إشارة، ولو ضمنيّة، بأنّه لو كان لدى المؤسّسة التي تشغّله خياراً آخراً عدا تواجده لكان أفضل لها، وهو ما يسبّب حرجاً في نفسه وضيق، ومن جانب آخر، فإنّ هذه النظرة تساهم في اعطاء المعاق الحدّ الأدنى من المسؤوليّات والفرص، حيث يكون الغالب على بقاءه هو الخروج من حيّز المشكلة، وليس بالضرورة الإرتقاء به واستثمار وجوده للدفع بنمو المجتمع. وهذا لا يُعطي المعاق تحفيزاً للإبداع والتطوّر وإعطاء أفضل ما لديه في مجال العمل.

التربية لصناعة التغيير:

إنّ الجهات المختلفة التي تتعامل مع المعاق منذ سنوات عمره الأولى غالباً ما تركّز على إعاقته وسبل التعاطي معها، وتعطيه من المهارات الاجتماعيّة ما تساعده على التواصل مع الآخرين والاندماج معهم، ومهارات أخرى تساعده على التأقلم مع وضعه وإعاقته، وقلّما يتم التركيز على المهارات التي تساعده على التعرّف على أنّ له دوراً في التغيير في المجتمع، وأنّ وجوده لا يقتصر على تدبير حياته بالحدّ الأدنى من مساعدة الآخرين، بل هو له دور مؤثر فاعل في مساعدة الآخرين والإرتقاء بهم. فإن تم استثناء بعض الحالات من الاعاقة التي يصعب معها الفهم والادارك، فإن أغلب الإعاقات الأخرى هي إعاقات تجعل من المعاق فرداً عاديّاً كباقي الأفراد مع وجود بعض الصعوبات والتحدّيات.

فالمعاق بحاجة إلى أن يتعلّم مهارات التأقلم والتعامل الأفضل مع الإعاقة، وأن يتم العمل معه على مهارات اكتشاف المستقبل والتفاعل معه أيضاً. إنّ مهارات الحياة الأساسيّة كالتفكير النقدي والتفكير الايجابي والقدرة على ايجاد الحلول والتشاعر مع الآخرين هي جميعها مهارات هامّة للجميع ولكنّها أهم بالنسبة للمعاق، صغيراً كان أو كبيراً، فهي تساهم في بناء شخصيّته التي ستؤثّر إيجابيّاً في بيئته المعاشة، نظراً لأنّه عادة ما يعيش في ظروف لا تتوقّع منه أن ينتج أو يَبدع أو يصبح إنساناً يتخطّى المألوف.

دور مراكز التأهيل ومؤسسات المجتمع المدني:

تقوم مراكز التأهيل للمعاقين بأدوار مهمة وأساسيّة خاصّة للأطفال المعاقين، ولكن كثيراً ما تسلط الضوء على مساعدة الطفل المعاق، وأحياناً أهله أيضاً، في التعامل مع الإعاقة بحيث تكون تحت السيطرة، والعمل

على المساهمة في الحدّ من تأثيراتها السلبية وتجاوز الصعوبات التي قد تنتج منها. وهناك مراكز تعمل على التدخل المبكر، والمساهمة في الحد من تطور الاعاقة، ومساعدة الطفل في تعلم المهارات الاساسية التي يستطيع بها أن يتعامل مع حياته بشكل عملي أكثر سلاسة، كما وبعضها تعمل على مساندة اولياء الأمور ايضاً، وتدريبهم على كيفية التعامل مع الضغوطات في حياتهم نتيجة وجود طفلهم المعاق.

ومع أنّ تلك الخدمات غاية في الأهمّية ولا غنى عنها وليس لها بديلاً، إلّا أنّ الكثير منها يجعل العمل على حلّ مشكلة الإعاقة والحد من الصعوبات الناجمة عنها هو الجانب الرئيسي وربّما الوحيد لديها، ولا يكون لها المجال في التركيز على جوانب تطوير الشخصيّة والتمكين والتنمية الإنسانية. فنظراً لأهميّة هذه المراكز وارتباطها المباشر مع المعاق وذويه، فهي تشكّل بيئة مناسبة لمساعدة المعاق في رؤية نفسه كجزء من نسيج المجتمع بشكل تلقائي وطبيعي وليس شيئاً مختلفاً يحتاج أن يقتحمه ويحصل على قبولاً منه لكي يجد لنفسه مكاناً فيه.

المؤسسات الدينية والثقافة الدينية:

تولي نسبة كبيرة من المجتعات العربية اهتماماً للجانب الديني، وتحاول ان تعيش حياتها بطريقة تتوافق مع معتقداتها الدينيّة، ويعتبر الخطاب الذي ينطوي على الجانب الديني مشجعاً للعمل به أكثر من لو كان خطاباً منطقياً محظاً مجرّداً. وعلى الخطاب الديني أن يبرز الجانب الانساني للمعاق، وأنّ للمعاق دوراً في نشر الخير، وهو ليس فقط لامتحان الناس وقياس قدرتهم على الكرم والرحمة وتطبيق القيم من خلاله، وأن تدعو الآخرين إلى النظر للمعاق كإنسان كامل الأهليّة، وأنّ قيمته في الحياة بناء على انسانيته بشكل رئيسي، وليس على قدرته في إنجاز الأعمال بشكل تنافسي.

صورة الإعلام للمعاق:

يقوم الاعلام العربي بشكل عام بالتركيز على ضعف المعاق ولا يظهر جوانب القوة لديه، ففي الافلام والمسلسلات والبرامج المختلفة، كثيرا ما يتم إظهار الشخص المعاق في المنزل أو مكان تواجده على أنّه

شخص مهمّش أو مُستهلك دون عطاء، وتحاول أن تبيّن مدى قدرة الآخرين على التعامل مع المعاق بشكل لطيف ومنصف، وقليلاً ما نرى عملاً فنّياً يحفّز المشاهد ليؤمن بأن المعاق يستطيع إحداث تغيير في بيئته ومجتمعه، والقيام بأمور خارج النطاق المعمول به، والمتوقّع منه، بحيث يتخطّى نفسه ويصبح شريكاً في التنمية والإصلاح، ليس فقط في الجوانب التي تخصّ الإعاقة، بل في جميع المسائل الهامّة التي تتعلق بالمجتمع والعالم.

تجربة "كن حراً" في برنامج "أنا طفل قوي وذكي وآمن... رغم إعاقتي":

دشّن مركز "كن حراً" برنامج "أنا طفل قوي وذكي وآمن... رغم إعاقتي" بحضور المقررة الخاصّة لدى الأمم المتحدّة الخاصّة بالإعاقة. ويهدف هذا البرنامج إلى تمكين الأطفال والمراهقين في جانبين أساسيين. الأول: مهارات الحماية الأساسيّة التي يستطيع الطفل والمراهق أن يتعرف من خلالها على جوانب القوّة لديه، والمساهمة في بناء شخصيّة قويّة ذكيّة عاطفياً، ويستطيع التفكير والتصرّف بشكل يساهم في حمايته من الاعتداء. والثاني: مساعدته على أن يرى نفسه إنساناً لا تنتقص إعاقته من قيمته الإنسانيّة بأيّ شكل من الأشكال، وأنّ وجوده في هذا العالم ليس بأقلّ أهمّية من أقرانه الذين ليس لديهم إعاقة، وأنّ له دوراً في المساهمة في التنمية وإيجاد التغيير حتى لو كان صغيراً وفي مجال محدود.

كما يعمل البرنامج مع أولياء الأمور لمساعدتهم على اكتشاف بعداً آخر في تعاملهم مع طفلهم المعاق، فيتخطّون التعامل معه كمشكلة، ويتحفّزون للتفكير بالارتقاء بشخصيّتهم وإنسانيّتهم مع طفلهم، والمساهمة في الارتقاء به هو أيضاً، وذلك من خلال مفاهيم وتجارب عمليّة واقعيّة بعيدة عن المثاليّة. كما ويعمل البرنامج مع المربّين والمعلّمين والمدرّبين الذين يعملون مع الطفل أو المراهق المعاق بشكل مباشر، وذلك من خلال تدريبات متخصّصة تساعدهم على إدخال مهارات الحماية الأساسيّة ومهارات الحياة الأساسيّة في تعاملهم اليومي مع الأطفال والمراهقين من جهة، وأن يتمكّنوا من رؤية إنسانيّة المعاق قبل إعاقته وتحفيزه لرسم مستقبل طموح لنفسه ولحياة يرتضيها من جهة أخرى.

الخلاصة:

إنّ طبيعة النظرة للطفل المعاق منذ أيّامه الأولى وحتى سنوات حياته المتقدّمة لها تأثير كبير في تشكيل شخصيّته، والكيفية التي يرى نفسه عليها ويتحسّس موقعه في الحياة، ونظراً لأنّ حياة المعاق بها من التحدّيات والصعوبات التي قد لا توجد في حياة الآخرين، والتي تفرض وضعاً مختلفاً على أسرته وذويه ومن حوله، فقد يكون التركيز الأوّل والعامل الأساس في التعامل معه هي المشكلات التي تتولّد من جراء تلك التحدّيات والصعوبات، مما ينعكس على كلّ ما يدور حول المعاق بما فيه النظرة إليه والتواصل معه.

فلو تمّ التعاطي مع المعاق بتقديم وجوده الإنساني أوّلا، والذي يعني القدرة على التطوّر والتنمية والتمكين وبناء الشخصيّة القادرة على خلق الفرص المختلفة، ومن ثمّ إعاقته، والتي تعني بعض التحدّيات والصعوبات، لأتيحت للمعاق فرصة أكبر للتعرّف على نفسه، ويستطيع معها أن يحلم بمستقبل يحدّده هو بدل أن ترسمه له الأقدار والظروف وما يفعله الآخرين من أجله، فيقوم هو أيضاً بدور فعّال في ذلك، حتى لو كانت الإمكانيّات المتاحة لديه ضعيفة، ولكنّه يبحث عن الفرص ويؤمن بأنّها تعنيه هو أيضاً، وأنّ الحياة ليست كريمة مع الأسوياء بخيلة معه.

د. سرور قاروني
عضوة مجلس ادارة جمعية البحرين النسائية-للتنمية الإنسانية
مديرة برنامج "كن حراً" لحماية الطفل من الاعتداء والاهمال